الفصل الأول

الاسلام والغرب

بَعَثَ النبي محمد في أخريات حياته برسائلَ إلى حكام المناطق المجاورة، مثل النجاشي ملك الحبشة، وخسرو الثاني في فارس (٥٩٠ ـ ٦٢٨) م وهِرَقْلَ القيصر الرومي الشرقي (٦١٠ ـ ٦٤١) م، طالباً إليهم ببساطة ووضوح تام أن يُسلموا، مبيِّناً أن في ذلك خيرهم وخير رعيتهم[1].

بهذا الحدث في تاريخ الدبلوماسية الدولية تبدأ العلاقة بين الإسلام والغرب، وهي علاقةٌ لم تُبتَرْ قط، ولكن لم تتسم أيضاً بخلوها من التوتر أو التحفز، فقد صحبتها ملامح المجابهة، على امتداد ألف وأربعمئة عام، وذلك على الرغم من توافر التلاقح الفكري والاقتصادي المثمر بينهما.

لذا يرى المرءُ اليوم أمامَ خلفيةِ الصراع الإسلامي المسيحي عالَمَيّ الشرق والغرب أو المشرقَ والمغربَ، عالَمَيْنِ لا يُتمّم أحدهما الآخرَ في أغلبِ الأمر، بل عالَمَيْنِ مُتقابِلَيْنِ، أحدُهما معادٍ للآخر، لا يتفهمه ولا يطمئن إليه. إن الذاكرة الجماعية لكليهما حافظةٌ واعيةٌ متيقظةٌ، ترصد حركاتِ «الخصم» وسكناتِه.

إن مَجْرَى التاريخ خاصةً السرعةَ الجارفةَ والحجمَ الهائلَ لانتشار الإسلام خلالَ سنواتٍ معدوداتٍ يُفسر لنا الكثير من الأمور: فلم يكد الرسول ينتقل إلى رحمة اللّٰه حتى دالت دُوَلٌ ودانت بالإسلام مثلُ سوريا وفلسطين (٦٣٤ ـ ٦٣٥) م وفارس (٦٣٧) م ومصر (٦٤٣ ـ ٦٤٩) م وأرمينيا (٦٥٢) م وقبرص (٦٥٣)

م وشمال إفريقيا أو المغرب العربي (ابتداءً من ٦٧٠)، بل إسبانيا ذاتها اعتباراً من (٧١١) م. أما القسطنطينية، فقد شهدت عام (٦٨٨) م أول حصار إسلامي لها، وقد شارك في هذا الحصار الصحابيُّ أيوب، وكان حامل لواء الجيش.

وطبيعي أن تلك الانتصارات جنحت بالإنسان الغربي المسيحي إلى الزعم بأن الإسلام دينٌ عدوانيٌّ، فصار يتشبث بالادعاء أن الإسلام إنما انتشر بحد السيف فحسب... والحق أن شعوب البلاد المغلوبة أو المفتوحة سواء النصارى أو الفرس لم يستطيعوا الصمود أمام بأس المسلمين الأوائل، المستميتين في زحفهم، وقد أشعل الإيمان حماستهم وحميتهم، لكن الحق أيضاً أن تلك الفئةَ المسلمةَ القليلةَ العددِ والعدةِ ما كانت لتستطيع فَتْحَ تلك الأقطار والممالك الشاسعة، لو لم تدخل شعوبُها في الإسلام أفواجاً.

لقد كانت ثمة أسباب أو حوافز مختلفة لاعتناق تلك الشعوب الإسلام، لكنّ واحداً منها بعينه على جانب عظيم الأهمية، وإن لم يتفق مع مفاهيم الغرب المسيحي ولم يناسبها أو يتملّقها: ألاَ وهو اعتناق كثير من النصارى أنفسِهم للإسلام، نعني الهراطقةَ الخارجين على إجماع الكنيسة الغربي من نصارى المغرب والمشرق العَرَبِيّين، ومنهم النصارى المعروفون بالإريسيين والدوناتيين، فقد اعتنقوا الإسلام لأنه يتفق مع اعتقادهم في رفض الطبيعة الإلٰهية للمسيح، ورفضِ التثليث(٢).

بهذه المناسبة، لا بد أن نشير إلى أن الإسلام دخل في القرن الحادي عشر، دون حد السيف، السنغالَ ومالي وغانا وتشاد، ولا يزال ينتشر سلمياً في مناطقَ أخرى من إفريقيا السوداء.

إن حركيّة المسلمين التي أيقظت العالم وجعلته يمضي قُدُماً، شملت آنذاك العلوم والحضارة، فانطلق علماء الإسلام يحققون نتائجَ مذهلةً في العلوم الطبيعية والإنسانية، حتى لقد غيروا مسار تلك العلوم قروناً وقروناً، كما تشهد بذلك ميادينُ الرياضيات والبصريات وعلم النبات وعلوم الطب وفروعه، مثل الجراحة وأمراض العيون وشؤون البيطرة والصيدلةوالصحة... ونشأت وترعرعت علوم المعاجم والنحو والصرف والبلاغة والموسوعات وكتب التاريخ وعلم الاجتماع،

وإحياء فلسفة أرسطو التي كان الغرب قد نسيها، وأخذت شمس الحضارة الإسلامية تبدد الظلام الذي رانَ على أوروبا قروناً، وسطعت خاصةً في الفترة من القرن التاسع حتى الرابع عشر، وكفى أن نستدل على ذلك بذكر بعض الأعلام، مثل الرازي والبيروني وابن رشد وابن سينا وابن خلدون وابن بطوطة والخوارزمي(٣).

أخيراً، أُجْبِرَ الزحف الإسلامي على الانحسار والتقهقر عام ٧٣٢ في فرنسا. ولم تكد عدة قُرون تنقضي حتى بدأ الغرب بِشَنِّ حملاتِه الصليبية المضادة على الشرق الإسلامي (من القرن الحادي عشر حتى القرن الثالث عشر)، ثم كانت حركة استرداد الأراضي الإسبانية والبرتغالية من أيدي المسلمين العرب.

أما حدّ السيف البتّار كما يحلو للغرب دائماً ترديدُه، فقد ذاقه المسيحيون البيزنطيون أنفسُهم على يد المسيحيين اللاتين إبّانَ احتلال القسطنطينية عام ١٢٠٤ م.

ثم بدأت فرائص الغرب ترتعد فَرَقاً بعد استيلاء العثمانيين عل القسطنطينية عام ١٤٥٣ م، فقد جَيَّشُوا الجيوش وبدأت جحافلها تعبر البلقان حتى فيينا عامَيْ ١٥٢٩ م و١٦٨٣ م.

لقد بدا أن ذلك الصراعَ الملحميَّ بين الإسلام والغرب قد انتهى مع مطلع القرن الثامن عشر. منذ ذلك الحين سلك كلٌّ منهما طريقاً زادت الهُوَّةَ بينهما اتساعاً، فاتخذ الغرب منذ عصر النهضة والاستنارة العقلية والفكرية طريقَ التطور التكنولوجي العلمي مباشرةً وبشكل يكاد يكون مركزاً على هذا الميدان فحسب، مما أتاح للغرب حركيةً هائلةَ الطاقة في مجالات الاقتصاد والعلوم الحربية والأسلحة والعتاد الحربي، فأصبحت له في هذه المجالات اليدُ العليا، ومن ثم رأى البعض في تفوق الغرب هذا تفوقاً عاماً للحضارة المسيحية.

في الوقت ذاتِه تقهقر العالمُ الإسلاميُّ أو سار في طريقٍ موازيةٍ للغرب لكن في الاتجاه المفضي إلى التخلف والجمود والركود، بحيث لم يعد في إمكانِه تجنُّبُ الاستعمار الغربي في القرن التاسع عشر، ولم يكن محضَ خيالٍ أن يعتقد

كثيرٌ من المراقبين للوضع في العالم الإسلامي أنَّ كمال أتاتورك أجهز على الإسلام بإلغائه للخلافة عام ١٩٢٤ م، وشَيَّعَه إلى مثواه الأخير.

وعلى العموم، بدا منذ منتصف القرن العشرين أن حضارة الغرب المسيحي ـ على حد تعبير تيودور فون لاوي ـ قد فرضت نفسها على العالم فرضاً، وأن الأمر واقعٌ لا محالةَ إن آجلاً أو عاجلاً، فهي حضارة الغالب التي سيتخذها المغلوب طوعاً أو كرهاً، وأنَّهُ لن تمر سنواتٌ حتى يرتديَ الناس جميعاً من مدينة «سيول» إلى مدينة «سانت باولي» سراويل رعاة البقر (الجينز)، وسيلتهمون شطائر الهمبورجر السريعة الخفيفة، وسيشربون الكوكاكولا ويُدَخِّنُون سجائر مارلبورو، وسيتحدثون الإنجليزية، ويرون برامج البثِّ التليفزيوني الأمريكية (سي إن إن)، وسيسكنون البيوتَ البسيطةَ المسطَّحةَ البناءِ والسُّقُوفِ، الثائرةَ على المعمار التقليدي، وسيعيشون في بلاد تحكمها الديمقراطية، وربما، حِرْصاً على مسايرة الغرب المسيحي، سيعتنقون أحدَ المذاهبِ المسيحيةِ السائدة، تقليداً لا تديّناً.

وحتى يومنا هذا يَحار المرء في تعليل تدهور العالم الإسلامي(٤)، وأرى لذلك ثلاثة أسباب رئيسة:

(١) في القرن الثالث عشر، أطبق الغرب المسيحي والمغول على العالم الإسلامي متزامنين فَشَلاً عَصَبَ الحياة، فسقط مركزا الحضارة الإسلامية الزاهرة في قرطبة (عام ١٢٣٦) م وبغداد (عام ١٢٥٨) م، ولم يسترد العالم الإسلامي حتى اليوم قواه بعد تلك الضربة القاصمة والكارثة المؤسفة.

(٢) في القرن الرابع عشر، شاع واستقر لدى الجمهور أن الشريعةَ وعلومَ الحقوق الإسلامية، بل وما عداها من العلوم، تعلو ولا يُعْلَى عليها، وأن السلف الصالح القريبَ من المصادر الأولى المباشرةِ قد أحاط بكل شيء علماً، وقَتَلَهُ بحثاً وفهماً، فَفَضْلُ اللاحِق مقتصرٌ على التلخيص والتقليد أو الشروح، مما أدى إلى حالة من الركود والجمود غريبةٍ على الإسلام الذي يدعو إلى طلب العلم والتفكر والتدبر، (انظر فصل: الدين والعلم).

(٣) ثالثة الأثافي، أو أخطر سبب ليس موجوداً داخلَ العالم الإسلامي وإنما خارجَهُ وبالذات في العالم الغربي نفسه: فليس لإنسان أن ينكر الارتباط الوثيق للانطلاقة المادية الهائلة التي بدأت مع القرن التاسع عشر، بالانصراف عن الدين المسيحي.

إن الدوافع التي مكّنت اقتصادياً وعلمياً للرواج المنقطع النظير للفلسفة الوضعية والمنهجية العلمية اللتين جعلتا من القرن التاسع عشر «القرن المعدوم الإله»[٥] دوافعُ إن لم تكن إلحاديةً، في حقيقة الأمر، فإنها تكاد تقتصر في معظمها أو ترتكز على النظرة اللاأدرية في رؤية الحياة الدنيا، والتي كان من سَدَنَتِها فويرباخ بشكل فجٍّ، وماركس وداروين ونيتشه وسيجموند فرويد. منذ ذلك الحين أصبح المذهبُ العقليُ العلميُ، الذي لا يعترف إلا بالعقل ولا يسمح إلا بقدر ضئيل من الحواسِّ مصدراً للمعرفة، الأيديولوجيةَ (الدينيةَ) المسيطرةَ في الغرب سيطرةً فعالة.

إن المثقفين من هذا الطراز قد يتقبلون فَرْضاً وجودَ إلٰهٍ على أي حال بنوع من التسامح حسب نظرية سوينبُورن[٦]، أما كلُّ ما يتعلق بهذه المسألة الأخيرة فإنهم يُعَبِّرون عنه بأنه (الطقوس السحرية المحظورة لكبت شعور الخوف من الموت)، على حد تعبير فولفجانج شِليم فروِيند!

ينسحب هذا بالتالي على السواد الأعظم من الكتل البشرية في القرن العشرين... لقد غدت هذه الجماهير العريضة، نتيجة ممارستِها الواقعيةِ للذاتية وللنسبية تعيش نوعاً من الإلحاد الساذج المسطح الأبعاد، متمثلاً في عبادة آلهة جديدة هي: السلطة والثراء والجمال والشهرة والجنس. لقد رَضِيَ هؤلاء (الملحدون بالممارسة) الاطمئنانَ والركونَ إلى العلوم الطبيعية عِوَضاً عن الدين الذي أقصته أو هجرته، علماً بأن العلومَ الطبيعيةَ عاجزةٌ عن الخوض في استكناه المسائل الروحية، إذ يرى أولئك أن تلك المسائل (ونحوَها من أمور الغيب) نوعٌ من البقايا المتحللة (ناتجُ انحلال) في طريقه إلى الزوال مع المسيحية اللاعقلانية، اللامنطقية[٧].

إن فقدان هذا السمو فوق المادية، وبالتالي تمكُّنَ الماديةِ المبتذلةِ غيرِ المصقولة في الشرق والغرب يُثِيرُ نَهَمَ اللذة الضاربة لدى الإنسان غير الملتزم أو غير المرتبط بوازع يزعه، والذي يتخذ من عالم أحاسيسه المادية مقياساً لكل شيء، فالمتعة واللذة غاية وجوده، وتَعَطُّشُهُ لا يروى لاهثاً خلف تحقيقِ الجنّة الاستهلاكية على الأرض(٨)، وإلى تحقيق تلك الجنّة الاستهلاكية يسعى المجتمعُ الصناعي حثيثاً، ولا عجب إذ أصبحت قِيَمُ هذا المجتمع الصناعي ومبادئه ومثله العليا ذاتَ طبيعة اقتصادية: النمو، والرَّيعية أو المُربحيّة، والتشغيل الكامل، وتحقيق أقصى ربح، والتخصص الدقيق... ولقد وصف ألفريد ميللر ـ أرماك هذه العملية المتساوقة المتسلسلة منطقياً في كلمات أشدَّ إيجازاً في كتابه «الدين والاقتصاد» الصادر عام ١٩٥٩، فقال: «نظراً لأن الإنسان يدفع ثمن حريته في إنكار اللّه، بِمَلْئِهِ عالَمه بالأصنامِ والأوثانِ والطاغوتِ، فإن قصة الإيمان لا تكمل فصولُها إلا قصة الكفر. إن اللّه، وهو العليّ الأعلى، يستبدله الكافرُ بآلهة وأرباب أخرى فيستفحل فقدان الجوهر أو الذات. وهكذا، فإن قصة انحراف الأديان أو فسادها، وقصة الأديان الزائفة هي كذلك قصة اندلاع الشر المخرِّبة، التي تطلقُ الكوارث من مرقدها» (انظر الصفحة الخامسة عشرة من الترقيم الروماني في الكتاب المذكور).

هذه الحركيّة ذاتُ البواعثِ الدنيوية المكوِّرة قبضتَها مكشرةً عن أنيابها لا يمكن أن تعترضها أو تقاومها الحضارة الإسلامية أو أي حضارة دينية أخرى، على صعيد السلطة السياسية. لهذا، ونحن نستعرض السبب الثالث الرئيس لتخلف العالم الإسلامي، يكون من المغالطة أن نتساءل: ما الذي دهى المسلمين اليوم حتى انتهوا إلى هذا التطور المعوجّ غير القويم؟!

الصواب أن نتبين أن العالم الغربي هو الذي انتهى إلى هذا التطور العقيم غير القويم!(٩).

وفجأة، وعلى غير المتوقع، طرأ على التطور في كلا العالمين شرخ هائل أو انكسار حاد في الستينات والسبعينات من هذا القرن.

فالإسلام الذي زلزلته الكوارثُ الداميةُ والأزمات الطامية لم يقض نحبه ولم يُقْبَر، بل على العكس انطلق زاخراً بالحياة والنشاط أقوى ما تكون الحياة، حتى لقد بدأ البعض في الغرب يعتقد أنه لا بد، مرة أخرى، أن يُحْسَب للإسلام حسابٌ، وأن يُخْشَى بأسه. أما المجتمعات الصناعية الغربية، فقد أخذت الأزمات بخناقها.

حينذاك بدا تطور العالمين الغربي والإسلامي فجائياً غيرَ متوقع: أما اليوم، فإننا مقتنعون أن ذلك التطور كان نتيجة حتمية.

إن علماء الاجتماع مثل دافيد بِلّ يسجلون أن النجاح الاقتصادي للدول الرأسمالية، قد قَوّض القيم الخلقية أو نَسَفها نَسْفاً، وبالتالي اجتث قواعدَ السلوك والمعاملات التي أبرزتها فلسفة ماكس فيبر الأخلاقيةُ البروتستانتينية، والتي عليها ذاتِها يقوم النجاح الاقتصادي للرأسمالية.

هذه الآلية التي تنسف ذاتها بذاتها تلقائياً تشوه الخصال الحميدة، مثل الجدّ وعدم التبذير والسلوك الحسن المنضبط والصبر والإخاء والمروءة والشجاعة. ففي مجتمعاتِ الرفاهيةِ المسرفةِ والوفرةِ الفائضةِ عن الحاجة، نرى تلك الصفاتِ الحميدةَ قد مُسِخَتْ وشُوِّهَتْ أضعافاً مُضاعفَة، أو نرى قيماً جديدة وأنماطَ سلوكٍ مستحدثةً تحل مَحَلَّها، لتتلاءمَ مع المجتمع الصناعيِّ الماديِّ بالفعل، وهي إذ تطبق عموماً لا تستطيع أن تخدع أي مجتمع صناعي(١٠).

هكذا، يمكن أن تنقلب الفردية الانعزالية فتتحول إلى النرجسية والأثرة، والإخاء إلى السلوك الجمعي غير المتعقل والمتكتل في مجموعات (شلل) تؤم المراقص وحفلات موسيقى روك آند رول، وحق تقرير المصير إلى فوضى خُلُقية (لا خَلْقية) كما لمسنا في الصيحة التي ترددت سنوات في الغرب على ألسنة الدعيّات الداعيات إلى تحرير المرأة وحقها في أن تفعل بجسدها ما تشاء، مثل الإجهاض.. (بَطني لي وحدي!)، وتنقلب حرية الفكر وعدم التحيز إلى إباحية مطلقة، والتسامحُ والسماحةُ إلى حيدة القيم، والتنافسُ المشروعُ إلى جنونِ الاستهلاك والحرص على متاع الحياة الدنيا، والمساواةُ إلى التسوية الآثمة التي

لا تميز بين الخبيث والطيب والغثّ والسمين (عملاً بالشعار: المهم هو الحاصل المماثل، بدلاً من تكافؤ الفرص)، ورهافةُ الحس إلى الولولة اليائسة، وتنقلب الحيطةُ والحذرُ إلى إحجام، وتنقلب التقوى والخشية إلى الفزع والجزع، والشهوةُ الجسديةُ المشروعة إلى جنون الجنس واستعراض المهارات الجنسية، وينقلب السعيُ الجادُ النشطُ إلى استعباد العمل واستبداده للإنسان كَدْحاً، وتنقلب المرونةُ إلى عداءٍ أعمى للتراث أو لكل ما يُعَدُّ تقليدياً.

بالاختصار، وكما سجل بحقٍ مارسيل بوازو عام ١٩٨٤، فإنه لا مفرَّ من حدوث تلك الرزايا المنكرة، إذا اختلّ توازنُ أعمدةٍ ثلاثةٍ أو مبادىءَ أساسيةٍ ثلاثةٍ: العقلانية والحرية والحب. ويمكن للمرء أن يستعرض ذلك بسهولة: فالعقلانية بلا حرية ملأت «أرخبيل جولاج»(*)، والعقلانية بلا حب قادت إلى أوشفتس(**)، والحرية بلا حب أو تعاطف تفضي إلى استغلال الغير واستنزافه، أما الحرية بلا عقلانية أو تعقّل فإنها تُفني ذاتها تلقائياً(١١). هذه الأعراضُ المرضية المزمنة للوظيفة غير السويّة أو التوظيفِ السيء المشوَّه، مألوفةٌ على مسرح الأحداث في كافة الدول الصناعية اليوم، ومن الشواهد التي ترمز إلى ذلك ظهور الخُضْرِ المنادين بالسياسة «الخضراء» التي تنتقد نظمَ الحكم السائدةَ وتبحث عن بديلٍ لها، مع أنها تدين لنُظم الحكم الغربية الصناعية ذات مستوى المعيشة المرتفع، بوجودها وحريتها.

الواقع، أن الشباب المنتمين إلى هذه الأحزاب الخضراء إنما يبرزون للعيان شيئاً أساسياً جذرياً يتضح من خلال نوعية مشكلاتهم ونزعاتهم المرضية وكُيوفهم وإدماناتهم، وعُقَدِهم المركبة: الخوف المتراكم المتراكب، والحاجة الماسة إلى الإحساس بالسكينة والمأمن، والغثيان والمقت الدفين الخفي للتكنولوجيا المسيطرة المستحوذة في إفراط، ومقاومة سطوة الاستهلاك الفظيعة، وتأليه العقلانية وعبادتها، سواء كان ذلك في ميدان الاقتصاد أو المجالات الاستراتيجية الذرية.

(*) معسكرات السخرة في سيبيريا: (المترجم).
(**) إبادة اليهود في عهد هتلر: (المترجم).

بهذا يُظْهِر أولئك الخضرُ وأشباهُهم أن الإنسان لا يمكن أن يُسْلَبَ التسامي الروحي الذي يصله بالخالق والخلق دون أن يصير عرضة للحرية البتراء المطموسة المعالم والحدود، حرية الأشقياء التي لا معنى لها.

ولنتأمل معاً ضحايا ذلك المجتمع الصناعي وقيمة الحَيْدِيَّة المزعومة فحسب: إنهم يتمتعون بكل ما يريدون من الاستقلال الذاتي، والحياة المؤمّنة منذ المهد إلى اللحد، والحرية أو الإباحية الجنسية التي لا تعرف محظوراً أو محرماً، والمخدرات على اختلاف أنواعها وأذواقها حسب كل مزاج وطلب، وأوقات الفراغ والعطلات والإجازات المكفولة قانونياً، وكافة الحقوق المدنية التي يحلم بها المرء، لكنهم على ذلك كله يحسّون فراغاً هائلاً يملأ وجودهم الفعلي، ويتوقون إلى الحنان والدفء البشري من قِبَل الجماعة التي يعيشون معها أو ينتمون إليها، وإلى سلطة زعيم روحي (جورو)... وراء كل هذا يقبع سؤال خطير ملحّ عن مغزى الحياة أو الوجود.

وعلى حد تعبير السيدة روزماري شتاين، فإن ما وصفنا ليس إلا الخلفية التي تفسر الانطلاقة الجديدة المحمومة للاتجاه الديني، بصفته «ظاهرة نفسيةً رائجةً سوقُها» بانشعاباتها إلى طوائفَ وفرقٍ ذات اتجاهات دينية متطرفة، شديدة التقوقع في التصاقها بالذات والتأمل الداخلي، والذي جعل بعض الأنظمة الكنسية الراسخة تتذكر تاريخها مع الصوفية محاولة إحياء ذلك أو استغلاله.

هذا الميل إلى ترويج العلوم الغامضة والغيبيات، ويدخل في ذلك ما يسمى بخطوات عيسى أو الصراط العيسوي، قد يتخذ مسالك نادرة عجيبة، لكنه عاجلاً أو آجلاً سوف يعثر في بحثه عن دين بديلٍ كافٍ شافٍ، بالظاهرة الفذّة: الإسلام المبعوث بعثاً جديداً، لا سيما أن الإسلام يرى أنه هو الصراط المستقيم بين المعسكر الغربي وأوهامه، والمعسكر الشرقي المادي وأحلامه.

لقد بدأت التطورات المتعارضة في العالم الإسلامي بالحركات الاستقلالية التي طالبت بالحرية والاستقلال الذي تحقق لها في القرن العشرين، وباستثناء فلسطين المحتلة كانت الجزائر آخر دولة حققت استقلالها عام (١٩٦٢) م. هذه

الدول حديثة العهد بالاستقلال واستعادة سيادتها لها أبطالها الذين عبروا عنها مثل محمد علي جناح وجمال عبد الناصر وأحمد بن بيللا، وهواري بومدين، وقد احتذت تلك الدول أول الأمر النماذج الغربية أو جربتها: الحرية في الفكر والعمل، والقومية، والاشتراكية، والشيوعية، ولم يكن الإسلام في تلك الفترة الاتجاه السائد البارز على مسرح الأحداث، بل إن القومية العربية بدأت غير دينية مثلها في ذلك مثل الحركة الصهيونية في بداياتها، فنجد مثلاً القيادة العلمانية البعيدة عن الدين قد ميزت «الدستور الجديد» في تونس، و «جبهة التحرير الوطنية» في الجزائر. هذا الاتجاه العلماني الذي احتذى الغرب أو تأسَّى به، والذي استمر فترة بعد نيل تلك الدول الإسلامية استقلالها، إنما يتفق في جوهره مع مبادىء التركي كمال أتاتورك، والمثل العليا للمسلمين المستغربين (الآخذين بمثل الغرب) المعاصرين من مثل محمد أركون في فرنسا، وبسام طيبي في ألمانيا.

لكن تلك التجارب كلها باءت بالفشل الذريع، لأسباب منها عجزها وقصورها وعدم استطاعتها معالجة الأدواء المستشرية وحل المشكلات المستفحلة مثل الانفجار السكاني، وضعف صادراتها، وهجرة رؤوس الأموال، وتوظيف الأقارب والمعارف والأحبة وإيثارهم ومحاباتهم بكافة ما يمكن من مزايا، والرشوة والفساد الخلقي، فضلاً عن تراكم الديون، وهروب المثقفين للعمل في الخارج، مع أن هناك جهوداً بذلت كي تعالج تلك الأدواء، مثل جامعة الدول العربية (تأسست عام ١٩٤٤)، والمؤتمر الإسلامي (تأسس عام ١٩٦٩)، ومجلس التعاون لدول الخليج (تأسس عام ١٩٨١)، واتحاد المغرب الكبير (تأسس عام ١٩٨٩).

قبل هذه الخلفية ينبغي الإشارة إلى أن التحليلات المستمرة لهذه الظاهرة الفذة: الإسلام، قد بدأت تتوالى منذ بداية السبعينات حتى اليوم دون انقطاع، وكم حاولت تفهم الصور المتعددة التي سجلتها ووعيتها مثل: الصحوة الإسلامية أو اليقظة والعودة إلى الأصول أو ما يسمى بالأصولية والسلفية الإسلامية، وعدم الفصل بين الدين والدولة، وقد خصصنا في هذا الكتاب فصلاً لمعالجة هذا

الأمر[١٢]. في بادىء الأمر، اعتقد البعض أو تمنّى أن الأمر ليس إلا حركة اجتماعية تبدي احتجاجها قولاً وفعلاً، والواقع أن هذه النظرة التي تريد أن ترى أن حركة إحياء الإسلام ليست إلا تعبيراً عن العجز التكنولوجي (الوقوع في مصيدة التخلف تكنولوجيا)، قد أثبتت خطأها الفادح وعجز المحللين والدارسين الآخذين أو القائلين بها عن فهم العامل الديني الأصيل.

والظاهر أن هؤلاء تعوزهم إمكانية تفهّم الآخرين الذين يأخذون الدين مأخذ الجد، ويرونه محور حياتهم، حتى لو توافرت لهؤلاء المحللين والدارسين سلامة النية، وحسن الطوية في النظرة الرومانسية إلى العالم الثالث.

أصبحنا ندرك الآن، مع الأستاذ بسام طيبي، أن مصطلح «الرجوع والارتداد إلى الإسلام» يتضمن تجنّياً وافتراءً وافتِئاتاً على الإسلام، ذلك أن الإسلام، باعتباره ديناً ونظام حكم مشروعاً معتمداً، لم يفقد قط وظيفته وهيبته، حتى في تركيا نفسها، اللهم إلا إذا استثنينا الفئة المتشبهة بالغرب الغربية الثقافة واليد واللسان والزي، بل إن الإسلام، على حد تعبير أرنولد هوتنجر، لم يفقد أهميته مطلقاً، وإن حجبها غشاء شفاف رقيق لعملية التحديث أو التمدين الحضاري العصري.

وهكذا يعترف الباحثون أخيراً أن ظاهرة تجلّي الإسلام في مجلىً جديد، يجب فهمها على أنها اقتحام جديد للسلطة الدينية (الشريعة) للهيمنة على مجالات الحياة العامة، وقد أكد هذا عنوان كتاب «جيلز كبل» الذي سماه «انتقام الله»، ومن الطبيعي المنطقي أن يرتبط هذا الاتجاه بفكرة الرفض المبدئي القاطع للتمدين أو التحديث كما يريده الغرب المسيحي... إن العالم الإسلامي يرى في هجر الغرب للروحانيات والمثاليات وتعلقه الشديد بالماديات تشويهاً أو جدعاً لكفاءة الإنسان، ويرد على الاتجاه الغربي بمخطط إسلامي مضاد، يفسر في ضوئه النهاية المحتومة للمركزية الأوروبية، (بعد انهيار النظام الشيوعي أصبح العالم ـ من وجهة النظر الفكرية التاريخية ـ مرة أخرى، مسرحاً تتجاذبه قوتان أو قطبان اثنان فحسب).

وليس ثمة أي تناقض أو تعارض، في كون إحياء الإسلام يقدم للمسلم الذي يعاني، وتتوزعه الشدائد والمحن والكوابيس في العالم الثالث، الفرصة للعودة الرشيدة إلى جذوره، وأن يحقق أخيراً كرامته ويسترد اعتباره، ولن يتحقق له ذلك، إلا إذا كف المسلمون عن مسابقة الغرب في الحرص على متاع الحياة الدنيا الزائف الزائل والمتمثل في السلع الاستهلاكية التي لا طائل تحتها، بدون هذا لن يكسب المعركة، بل إن العكس صحيح: إن سلسلة الإهانات والإذلالات المتلاحقة للعرب والمسلمين، وللعالم العربي، والماثلة أمام العالم اليوم، وبوجه خاص في مأساة فلسطين، قد مهدت الأرضيةَ السياسية للتخلص من ذلك الخزي ولتحقيق انطلاقة أخلاقية ـ دينية واعية.

ومعلوم لدينا، بالطبع، أن العالم الإسلامي لا يخلو من قوى «إسلامية» قد تتخذ الإسلام قبل كل شيء وسيلة أو ذريعة لتحقيق أهدافها أو مطامعها السياسية، أو لتبرير إقدامها على ما تقترف... يدخل في هذه القوى الإرهابيون الذين يسمون أنفسهم مسلمين.

لا عجب، إذن، أن يؤكد بعض الباحثين في هذا الصدد أن صورة الإسلام اهتزت لدى الكثيرين في الغرب بعد الثورة في إيران (عام ١٩٧٩)، وبعد حرب الخليج (١٩٩٠/١٩٩١)، حيث جرت أحداث وتصرفات أساءت إلى الإسلام، بشكل لا نكاد نجد له مثيلاً في هذا القرن (انظر: فولفجانج جونتر لرش)[١٣].

الحق أن العالميْن كليهما: المشرقَ (المسلمَ) والمغربَ (المسيحيَ) قد وقفا مراراً، ويقفان اليوم مرة أخرى، أمام كومة من الحطام: أثناء حرب الخليج سرى الخوفُ إلى نفوس المسلمين الذين يعيشون في أوروبا وأمريكا، كما تسلل الخوف أيضاً إلى نفوس المسيحيين الأوروبيين في المغرب العربي والشرق الأوسط. لقد بدا الأمرُ كما لو أننا سنتورط جميعاً في حرب صليبية من جديد، أو أننا سنعود إلى عهود الحروب الصليبية الغابرة... وكاد الحديث عن الحوار الإسلامي المسيحي لا يُذْكَر (انظر فصل: المسيحية من وجهة نظر إسلامية)، بل إن الأمر قد تجاوز ذلك حيث وصف «الغربُ» الإسلامَ بأنه يمثل قوى الشر

الشيطانيةِ العدوانيةِ الباغيةِ، تلك الصفات التي كان الغرب قد كفَّ عن وصف الإسلام بها زمناً طويلاً[١٤].

نستخلص من تاريخ هذه العلاقة التي هي أقرب إلى أن تكون مدعاةً للحزن، والتي عرفها كلا العالمين الإسلامي والمسيحي أربعمئة وألفاً من الأعوام، أن عليهما كليهما، خاصة في عصر أسلحة الإبادة الشاملة، أن تتم المواجهة بينهما في جو من التسامح (والفهم المتبادل وتقبل وجهة نظر الآخر واحترامها)، ذلك إذا كانا حريصين على أن يسود السلام العالم. ويمكن أن تُسَهَّلَ هذه المهمةُ (مهمةُ بقاء واستمرار السلام العالمي) إذا حاول الغرب تفهمَ العالم الإسلامي محاولةً جادة، ومثل ذلك مطلوبٌ من العالم الإسلامي أيضاً. إن هذا الكتاب يحاول إزالة العقبات والحواجز التي تعرقل السير في هذا الاتجاه، والتي وصفها فولفجانج شِليم فروبند بأنها «حواجز شاملة للمعرفة الشاملة، ناتجة عن البيئة الثقافية الحضارية» شرقاً وغرباً.

الملاحظات الهامشية للمؤلف:

(١) كتب الرسول ﷺ معروفة للمسلم العربي خاصة، وقد ذكر معظمها ابن قيم الجوزية في كتابه (هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى)، مثلاً كتاب النبي الذي بعث به دحية بن خليفة إلى هِرَقْل ونصه (بسم الله الرحمن الرحيم: من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم! أسلم يؤتك الله أجرك مرتين، وإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين: **﴿يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم: ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون﴾ (آل عمران، الآية ٦٤)** ص ٣٥، ويمكن من شاء الرجوع إلى تلك الكتب في الصفحات ٣٦ ـ ٤٠ من كتاب ابن قيم الجوزية، وهي الكتب التي بعث بها الرسول ﷺ إلى النجاشي، وإلى المقوقس، وإلى ملكي عمان وما حولها من النصارى، وإلى صاحب اليمامة وغيرهم.
قارن ابن اسحق/ ابن هشام سيرة محمد، ترجمة ا. غليوم طبع أكسفورد ١٩٥٥، ص ٦٥٢ وما بعدها بشأن كتاب النبي إلى هِرَقْلَ الذي ترجمه أبو سفيان لهرقل نزولاً على رغبته، وقارن الحديث رقم ٤٥٥٣ في صحيح البخاري، ترجمة محمد رسول، كولونيا، ط، ١٩٨٩، ص ٤٣٦ ـ ٤٣٨.

(٢) لم ير النجاشي منذ أول لقاء له بالمهاجرين المكيين عام ٦١٤ تعارضاً بين رؤية الإسلام لعيسى ومريم وبين رؤيته المسيحية لهما: قارن ابن اسحاق ص ١٤٦ وما بعدها، وكتاب «محمد» تأليف مارتن لنجز، طبع نيويورك عام ١٩٨٣، ص ٨١ وما بعدها.

(٣) كان ينبغي على كل مثقف أوروبي إدراك فضل العرب والإسلام على أوروبا المسيحية، خاصة بعد أن بيعت ملايين النسخ من كتاب الدكتورة زيجريد هونكه (شمس الله على أرض المغرب المسيحي) والذي حقق أرقاماً قياسية بطبعاته المختلفة، قارن كذلك كتاب المؤلفة (تراث الإسلام) الصادر في جزءين ط ميونيخ عام ١٩٨٣، وكتاب (الإسلام) لمحمد حميد الله، ط جنيف عام ١٩٦٨، الصفحات ٤٤٣ إلى ٤٧٧.

(٤) قارن مقالة بيتر فالتنر «لماذا تخلف العالم الإسلامي؟» في مجلة «حوار بين الإسلام والمسيحية: سي آي بي اي دي» الاسم العربي لها «تخاطب المسلمين والمسيحيين»، فرانكفورت ١٩٨٨، عدد (٦)، الصفحات ١٦١ ـ ١٧٣.

(٥) قرن بلا إله: هذا عنوان كتاب ألفريد ميللر ـ ماك، الصادر في عام ١٩٤٨.

(٦) ريتشارد سوينبورن: (وجود الله)، شتوتجارت عام ١٩٨٧.

(٧) هكذا يرى هانز أويسترله الوضع الراهن: صحيفة فرانكفورت العامة (فرانكفورتر ألجماينه)، عدد ١٩٨٧/٩/٩.

(٨) هناك تفاصيل أكثر إسهاباً في هذا، مثلاً كتب مؤلفين مثل «رينيه جينون: أزمات العالم الحديث ١٩٨١، وكتابه «حكم الأغلبية عبر العصور» ١٩٨٣، قارن أيضاً: فانسي باكارد في كتاب «الجنس وشريعة الغاب»، قارن كذلك: شارلز أ. رايش (نحو أمريكا خضراء) طبع عام ١٩٧١.

(٩) لهذا يغضب المسلمون حين يصطدمون بعبارات المستشرقين ومقترحاتهم التي تطالب

الإسلام بالانتفاض من سباته، ويحقق النهضة والتنوير، كما فعلت أوروبا، ليلحق بركب الحضارة العالمي.

(١٠) ارجع إلى كتاب دانيل بل (التناقضات الحضارية للرأسمالية)، لندن ١٩٧٦. وقارن كذلك: فولنجانج شليم فروبند في مقالته المنشورة في (المجلة النمساوية للعلوم الاجتماعية) ١٩٨٦، عدد (٣)، ص ٤٧ وما بعدها تحت عنوان «تأملات في الجدلية بين العقلانية والغيبية».

(١١) مارسيل بوازو في مقالته «سلاح أخلاقي: نظام القيم الغربية»، العدد (٣) عام ١٩٨٤، من الدورية التي يصدرها معهد الأمن الأوروبي في لوكسمبورج.

(١٢) قارن بسام طيبي (أزمة الإسلام الحديث) ميونخ ١٩٨١، وكذلك فولنجانج شليم فروبند: تعليق على الكتاب المذكور في مجلة الإسلام والغرب ١٩٨٢، عدد (٣) ص ١٢، ومقالته (الأصولية في اليهودية والاسلام) في مجلة الشرق عام ١٩٨٧، عدد (٢)، ص ٢١٦ وما بعدها، وكذلك مقالة ديتلف خالد (التطور في الإسلام) في جريدة زيوريخ الجديدة (نويه تسيرشر تسايتونج) بتاريخ ١٩٨٣/٤/٢٨، وكتاب بيتر شول ـ لا تور (الله مع الصابرين) شتوتجارت ١٩٨٣، وكتاب فيلهلم ديتل (الحرب المقدسة في سبيل الله!).

(١٣) جريدة فرانكفورتر ألجماينة بتاريخ ١٩٨٦/١٠/١٦، ص (٩).

(١٤) قارن كتاب زيجريد هونكه (الله فوق ما يصفون)، ط ١٩٩٠.